المستقبل والماضي: كيف نبني غدًا أفضل من خلال الاعتبار بالماضي؟

ما أهمية الاعتبار بالماضي، وما دوره في بناء المستقبل؟

غالبًا ما نسمع مقولات شائعة ومتناقضة مثل: "الماضي قد ولى"، "لا تعِشْ في الماضي"، "الماضي لا يعود!"، وفي المقابل: "بأخذ العبر من الماضي يمكن بناء المستقبل"، و"الماضي مصباح الدرب نحو المستقبل"، وأحيانًا: "الإنسان رهين الماضي!". فما هو الرأي الصائب بين هذه الآراء المتضاربة؟ هل الماضي ذو أهمية أم أنه لا يستحق الذكر ويجب نسيانه؟ وإلى أي مدى يؤثر الماضي في حاضرنا ومستقبلنا؟

صحيح أن الماضي قد مضى، ولا قدرة لنا على تغيير ما حدث فيه، لكن الواقع يؤكد أن تأثيره على الحاضر والمستقبل قائم، ويمكننا أن نأخذ منه العِبرة. الاعتبار بالماضي لا يعني استرجاعه وتكراره، بل يعني الوعي، واليقظة، وتجنّب الوقوع في الأخطاء نفسها. فالماضي كمرآة تعرّفنا بأنفسنا وجذورنا. الاعتبار بالماضي يساعدنا على التعرّف على مواطن القوّة والضعف فينا، ومن ثمّ نوجّه حياتنا ونمنحها معنى وغاية .وكلما تعلّمنا من ماضينا أكثر، ندمنا عليه أقل، واستثمرنا تلك الدروس لصياغة مستقبل أفضل.

إنّ كل ما عشناه من تجارب سابقة، سواء كانت إخفاقات أو نجاحات، آلاماً أو آمالاً، ركيزة أساسية في بناء مستقبل أفضل. إن أهمية الاعتبار بالماضي تكاد تكون واضحة للجميع، وإن كنا نميل أحياناً إلى تبنّي النصائح التي تدعو إلى نسيانه، فإنما يكون ذلك غالباً لتسكين ضميرنا. لكن السؤال الحقيقي هو: كيف يمكننا، من خلال الاعتبار بالماضي، أن نصنع لأنفسنا مستقبلاً أفضل؟

المستقبل هو انعكاس للماضي

الحياة في جوهرها هي سلسلة متصلة من الخيارات. فنحن جميعاً نواجه، خلال ساعات اليوم، قرارات لا تُحصى تُشكّل حاضرنا ومستقبلنا؛ بدءاً من خيارات صغيرة قد تبدو غير مهمّة، إلى تلك الكبيرة التي تغيّر مجرى حياتنا. كلّ اختيار بإمكانه أن يترك أثراً عميقاً في حياتنا. قراراتنا قادرة على أن ترسم ملامح نجاحنا، وسعادتنا،

ورضانا في الحياة. ومن ناحية أخرى، يمكنها أن تؤثر في علاقاتنا، وصحتنا، ونوعيّة حياتنا بشكل عام. فكلّ قرار وكلّ اختيار له تبعاته الخاصة، وقد يؤثّر في جانب من جوانب حياتنا، بل وربما في حياتنا بأسرها.

تذكيراً بما مرّ بنا في الدروس السابقة، فإنّ الله تعالى قد خلق هذا الوجود على أساس نظام العلّة والمعلول، أو ما يُعرف بالقضاء والقدر. فكلّ ما نقوم به في الدنيا، بل وما ينتظرنا في الآخرة، إنّما هو نتيجة لما اخترناه من "أقدار" ومقادير؛ كاختيار شريك الحياة أو الصديق، الذي قد يكون له دور مصيري في سعادتنا الدنيوية والأخروية.

إننا، في واقع الأمر، لا نزال جالسين على مائدة ماضينا، وكلّ ما نعيشه من حالات نفسية وروحية إنما هو انعكاس اللُقم التي تناولناها من تلك المائدة، ونتيجة سلسلة من الاختيارات والعلاقات والأفكار والسلوكيات التي صدرت عنّا في الماضي.

معظم الناس، لو أُتيحت لهم فرصة العودة عشر سنوات إلى الوراء، لفضلوا تغيير اختياراتهم، وعلاقاتهم، وأفكارهم، وسلوكياتهم. وهذا تحديدًا هو مفتاح وضعنا المستقبلي؛ فما سنكون عليه غدًا يتوقف على هذه العوامل الأربعة. سواء كنا ناجحين أو فاشلين، مقربين أو مُبعدين، علماء أو جهلاء، هادئين أو مضطربين، أخيارًا أو أشرارًا، كل ذلك يعود إلى ما حدث في ماضينا. نحن جميعًا نتاج لما زرعناه، وسنحصد ثمار ما بذرناه. بعبارة أخرى، مستقبلنا في الدنيا والآخرة هو انعكاس دقيق لماضينا.

ولا بد من الإشارة إلى أن للمستقبل وجهين: مستقبل مشكوك، ومستقبل محتوم. أما المستقبل المشكوك، فهو ما يتعلّق بالحياة الدنيا التي لا ندري إلى متى ستستمر؛ بيد أنّ كلّ ما سيجري فيها من أحداث مرهون باختياراتنا، وعلاقاتنا، وأفكارنا، وسلوكياتنا. وأما المستقبل المحتوم، فهو ذاك الذي يبدأ بالموت، ويمتد إلى يوم القيامة وما بعده. ومصيرنا في الحياة الأبدية لا يختلف، في ارتباطه بتصرّفاتنا واختياراتنا الدنيوية، عن مصيرنا في الحياة الفانية. والعاقل هو من ينظر إلى المستقبلين معاً: مستقبل دنياه ومستقبل آخرته، فيُعير كلاً منهما

ما يستحق من اهتمام. والآن إذا كان للماضي هذا التأثير الكبير في رسم ملامح المستقبل، فكيف نستثمره في بناء مستقبل مثالي مشرق؟

كيف نبني مستقبلاً أفضل من خلال الاعتبار بالماضي؟

من المأثور المعروف أن "الماضي مصباح يضيء طريق المستقبل"، وكبار أهل الدين لطالما أوصونا بأخذ العبرة من الماضي. ووفقاً للسنن الثابتة في هذا الوجود، فإننا مطالبون بأن نستخلص الدروس من الماضي، لخدمة كلٍّ من مستقبلنا المحتمل والحقيقي. علينا أن نحول دون ضياع الفرص وتبديدها، وأن نكون على يقظة تامة كي لا يتكرر في المستقبل ما آل إليه حال الأمس، وحتى لا يتحوّل الغد إلى ندم وخسارة. باختصار، ينبغي أن نجعل من تجربة "الماضي" زاداً وذخيرةً لـ"المستقبل".

إن شخصية كلٍّ منّا، لا تتجلى بوضوح إلا بعد مضيّ سنوات من العيش في هذه الدنيا. ومن الأسئلة التي يجدر أن نوجهها لأنفسنا: هل شخصيتي التي صنعتها الأيام تتناسب مع طبيعة الحياة في البرزخ؟ وهل سأنتقل إلى البرزخ في حالة سليمة أم لا؟

المستقبل الذي ينتظرنا، كما يصفه القرآن الكريم، هو جنّة عرضها السماوات والأرض؛[1] ومن هنا، يجب أن تكون جميع اختياراتنا في هذه الحياة—كالزواج، والتحصيل العلمي، والعمل—متناسقة مع غاية الخلق التي جئنا من أجلها، ومتناغمة مع طبيعة الحياة الأخروية والجنة المنتظرة. أمّا إن كانت بعيدة عن هذا المسار، فإننا نُعدّ من الغافلين. فإذا كنّا نرغب بمستقبل هادئ، مفعم بالطمأنينة، مقرون بالسعادة والهناء، فلا بد من الارتقاء بمستوى اختياراتنا، وعلاقاتنا، وأفكارنا، وسلوكياتنا. وهذا لا يتحقق إلا عبر معرفة "القِيَم والمقادير" الحقيقية للأشياء. إنّ فهم الأقدار والموازين يمنحنا القدرة على اتخاذ أنسب القرارات، وتحقيق

[1] ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ سورة آل عمران، الآية ١٣٣

أسمى النتائج. نحن مسؤولون عن كل ما نختاره، ونفكر فيه، ونتصوره؛ ولا بد من أن نعي انعكاساته ونتائجه. فمَن حمل في ذهنه أفكاراً باطلة، وأمانٍ وضيعة، أو محبّاتٍ في غير موضعها، فعليه أن يتحمل كلفتها، سواء في الدنيا أو في الآخرة. وكثيرون يلاقون عناءهم في أول ليلة في القبر بسبب أفكارهم وتخيّلاتهم وانحرافاتهم الذهنية.

في هذا الدرس، تحدّثنا عن أهمية الماضي ودوره الحاسم في صياغة مستقبلنا، وذكرنا أن المستقبل هو انعكاس لما مضى. فمن خلال الاعتبار بالماضي، ومن خلال اختيار مقادير مناسبة، يمكننا أن نصنع مستقبلاً أفضل لأنفسنا. والآن، نطرح السؤال: إلى أي مدى أنتم حريصون على مراقبة أفكاركم واختياراتكم؟ وكيف تستثمرون تجارب الماضي لبناء مستقبل أكثر إشراقاً؟ نحن بانتظار آرائكم القيّمة ومساهماتكم الثرية.